قالت العرب

ورِثتْ فقلتُ غزالة مذعورة
قد راعها وسط الفلاة بلاءُ
وبَدَت فقلتُ البدرُ ليلة تمه
قد قلدته نجومها الجوزاءُ
بسمتْ فلاحَ ضياءُ لؤلؤ ثغرها
فيه لداءِ العاشقين شفاءُ

(عنترة بن شداد)

المشهد

العدد 336 - السنة الثالثة عشرة - الإثنين 7 أكتوبر 2024 م الموافق 4 ربيع الثاني 1446 هـ

يحيى قلاش: هزيمة 67 دفعتنى للصحافة وطوفان الأقصى فضحت الأوهام

الإعلام المصرى والعربى مكبل ويعبر عن المواقف الرسمية ولا يعبر عما يجيش بصدور الشعوب

الإبادة كشفت انحياز وسائل الإعلام الغربية لإسرائيل وعرت أوهام حرية الإعلام الغربى

رفع سقف الحرية كفيل بإعادة الحياة للصحف الورقية فى مصر

النقابة أحالت أسماء كبيرة للتأديب بسبب التطبيع منهم أنيس منصور ولطفى الخولى وصلاح منتصر وعبدالمنعم سعيد

يعد يحيى قلاش نقيب الصحفيين الأسبق علامة فارقة فى تاريخ النقابة وفى الصحافة المصرية فعلى مدار عقود حمل راية الدفاع عن حرية الصحافة بوصفها صوت الشعب الذى لا يجب أن يقمع، وقدم فى سبيل ذلك الكثير من التضحيات وأحيل إلى المحاكمة بعد واقعة اقتحام النقابة فى سابقة كانت هى الأولى فى تاريخها، لكنه لا يعد ذلك تضحية بل واجبًا يتحتم عليه تأديته دفاعًا عن المهنة أو كما يقول «كل من يتصدى للعمل العام ويخلص له يعرف أن هذا اختيار وله تبعات على صاحب هذا الاختيار أن يتحمل تبعاته». وكان للمشهد هذا الحوار المهم معه ليحدثنا عن بداياته فى عالم الصحافة وعن معاركه النقابية التى خاضها وقضية حبس الصحفيين، ورأيه فى ملف الإعلام فى الحوار الوطنى وغيرها من القضايا المهمة وفيما يلى نص هذا الحوار:

●ما الدافع وراء التحاقك بالصحافة؟

الدافع الأول هو محاولات التعبير عن نفسى وتكوين موقف مما يدور حولي، وجاءت هزيمة ١٩٦٧ ونحن على أعتاب سن المراهقة وماجرى من مراجعات لكل شيء حولنا. كانت هناك تفاصيل كثيرة تصيغ هذه المرحلة فى مجتمع كان يعيش فقط من أجل هدف واحد هو الرد على هذه الهزيمة. وكان هناك مناخ عام يساعد على أن تكتشف نفسك ويجعل المشاركة فى الشأن العام من طبائع الأمور، فتنخرط فى التدريب على أعمال الدفاع المدنى وحمل السلاح وعلى الإسعافات الأولية أو الاستجابة لنداء المشاركة فى إنقاذ محصول القطن بالذهاب للحقول وجمع الأوراق المصابة.

مدرس العربي

وفى خضم كل ذلك تنتقل لمحطات لا تعرف إلى أين تقودك. ففى المرحلة الإعدادية كانت إشادة مدرس العربى بموضوعات التعبير التى أكتبها وحصولى على درجات مرتفعة فى هذا الفرع من اللغة العربية بصفة خاصة، ثم ارتباطى المبكر بمكتبة المدرسة واستعارة الكتب خاصة التاريخية وكتب السيرة الذاتية ووقوفى فى الإذاعة المدرسية خطيبًا بعد استشهاد البطل عبدالمنعم رياض واحتضان الناظر لى تأثرًا رغم أننى كنت طفلًا خجولًا، ثم انتقل أمر الاهتمام بالقراءة من مدرسة «المساعى المشكورة الإعدادية» إلى مكتبة منوف الثانوية والمكتبة العامة بالمدينة التابعة لوزارة الثقافة، وبناء علاقة مع أشهر بائع صحف فى مدينتنا «أبوالحديد» سواء بالشراء أو الاستعارة، ثم الاشتراك فى تجربة خروج أول مجلة مطبوعة عن جماعة الصحافة فى المرحلة الثانوية بمقال بعنوان «علامات استفهام فى مدينة منوف» وفيه نقد لبعض الممارسات وبعض المسؤولين فى نطاق مدينتنا الصغيرة.

صوت حلوان

ثم بعد ذلك كونت جماعة الصحافة بكلية الخدمة الاجتماعية بجامعة حلوان، ومن مجلات الحائط التى كانت فى مجملها هجومًا ونقدًا لسياسات الرئيس السادات إلى الصحافة المطبوعة التى انتشرت بالجامعات المصرية فى عقد السبعينيات وشاركت فى إصدار جريدة «صوت حلوان» التى كان يتم طباعتها بمؤسسة الجمهورية ومن هنا بدأت العلاقة الحقيقية مع عالم آخر تكتشف أنك كنت مدفوعًا إليه بمقدمات كثيرة سابقة.

● التقيت بكثير من كبار أساطين الصحافة المصرية خلال مشوارك المهنى الطويل فمن أكثرهم تأثيرًا فى حياتك ولماذا؟

التحقت بالعمل فى جريدة المساء بداية الثمانينات بقسم التحقيقات مع أول مدير تحرير هو الأستاذ رشيد الليثى الذى تبنى واحتوى عددًا من الزملاء الخريجين الجدد وطلاب السنوات النهائية بكلية الإعلام، لكن رؤيتى فى صالة «المساء» لعبدالفتاح الجمل صاحب أول ملحق أدبى فى تاريخ الصحافة المصرية، ومكتشف كثير من المواهب الأدبية من روائيين وشعراء ونقاد وفنانين تشكيليين كانت شيئًا آخر، كنت أشاهد الجمل مشتبكًا مع زواره الذين كانوا يتوافدون عليه بمكتبة بصالة التحرير الشهيرة بجريدة المساء، وكانت جلساته لها مواعيد محددة بمقر النقابة وخلال بعض الأنشطة الثقافية فى حزب التجمع أو أتيليه القاهرة، فاجأنى مرة بسؤال وهو يراقب محاولاتى التعرف عليه وأنا أظهر له فى الأماكن التى يتردد عليها «أنت جاى تشتغل صحفى ليه؟» باغتنى السؤال وحين شرحت له خلفية دوافعى والإشارة إلى انحيازاتى السياسية، كرر سؤاله وكأننى لم أجبه ثم قال حاسمًا «كل إللى بتقوله كويس بس علاقة ده إيه بإن تكون صحفى محترف» وهنا تلقيت منه الدرس الأول «الصحافة مهنة ولها أصول وأنت لازم تكون صنايعى ملم بأصول مهنتك والباقى لاحق ومكمل ويمكن يميزك بس بعدين». وبعدها صارت علاقتى به لصيقة وقريبة وظل ناصحًا لى حتى رحيله.

محمود المراغي

ثم كانت علاقتى بالأستاذ محمود المراغى التى بدأت بمعرفته فى المعسكرات الثقافية لجامعة حلوان عندما كنا نستضيفه للدفاع عن الاقتصاد المصرى بعد إعلان السادات عن سياسة الانفتاح الاقتصادى وساندنى وزملاء آخرين عند بداية التحاقنا بالمهنة وكان أحيانًا يقترح علىَّ أفكار بعض الموضوعات بل وتعريفى بالمصادر رغم أننى كنت لا أعمل بمؤسسة روزاليوسف التى كان مديرًا لتحريرها. ولا أنسى الكاتب والمفكر الكبير محمد عودة الذى ساندنى كلما استطاع وأخذ بيد عدد كبير من جيلنا وأدخلنا عوالم وعرفنا على قامات فى كل المجالات وزرع فينا الأمل والتفاؤل والإيمان بأن التاريخ يتحرك للأمام وأن المستقبل ينتصر.

توجد صحافة عربية متميزة لكنها تستمد قوتها من قوة تمويلها والأدوار المحددة لها

كثير من الصحف العربية أسيرة أدوار وأهداف محددة يضعها مالكها مما يجعلها بلا تأثير وبلا جماهيرية كبيرة

الحوار الوطنى لم يقدر أهمية الملف الإعلامى وقدمه بشكل خجول مما يعطى مؤشرًا إلى مدى جدوى هذا الحوار!

هيكل

وبعد ارتباطى بالعمل النقابى كان لكامل زهيرى وجلال عارف مكانة خاصة عندى ومنهما عرفت معنى وقيمة الكيان النقابي، ثم علاقتى الممتدة مع الأستاذ هيكل بعد مخاطبتى له دون سابق لقاء عام ١٩٩٥ أثناء أزمة القانون ٩٣ أننا فى انتظار كلمته، وفوجئت به يتصل بى ويعطينى كلمته وطلب أن ألقيها أمام اجتماع الجمعية العمومية وكانت جلساتى معه سواء فى مكتبه أو منزله الريفى ببرقاش متعة كبيرة عن أحوال المهنة واستفدت من خبراته الإدارية وشخصيته الدقيقة والمنظمة فى عملى النقابي.

●قضيت عمرًا طويلًا فى العمل الصحفى والنقابى فكيف تغير واقع الصحافة المصرية من وجهة نظرك منذ اشتغالك بالصحافة وحتى الآن؟ وهل هذا التغيير للأفضل أم للأسوأ؟

– الصحافة كانت مهنة ملهمة ومؤثرة ولها رسالة ودور ومهما كانت الصعاب أو التحديات التى كانت تواجهها، إلا أن دورها لم يغب وظلت المدارس الصحفية تتنافس وظل القارئ بكل تنوعه يجد ما يعبّر عنه وظلت الجريدة ضيفًا يوميًا على كل بيت، بل امتد تأثير الصحافة المصرية إلى خارج الحدود كأحد أدوات القوة الناعمة، وكذلك على مستوى الصناعة فكل الصحف والمجلات العربية أسسها صحفيون كبار من مصر وقامت واستمرت على أكتاف زملائنا الذين ظلوا يعملون بها لسنوات.

الآن جرت فى النهر مياه كثيرة فقد تراجع الدور المصرى وتراجع تأثير الصحافة التى فقدت هامش الحرية الذى كان متاحًا وبدونه تتراجع المهنة وتفقد مصداقيتها وتفقد ثقة القارئ، وتراجع التوزيع إلى معدلات مذهلة وغير مسبوقة، وهذا خطر كبير لأن الإعلام المؤثر بمثابة جيش عظيم يجب أن يؤدى دوره دائمًا لخدمة الوطن.

●يشهد تاريخك النقابى بنضالك الكبير من أجل حرية الصحافة وأنت خضت معارك جمة وكبيرة فى هذا الصدد كلفتك الكثير الخسائر فحدثنا عن هذا الجانب فى حياتك المهنية؟

– أنا من جيل انتمى للمهنة والنقابة معًا وقبل أن أكون عضوًا بمجلس النقابة كنت من ضمن كثيرين من أعضاء الجمعية العمومية لهم نشاط نقابى وعندما خضت أول تجربة انتخابات عضوية مجلس النقابة كان ذلك بضغط النقابى الراحل الأستاذ محمود المراغى والأستاذ جلال عارف الذى قرر عدم خوض انتخابات عضوية المجلس بعد أن استمر لثلاث دورات، وكانت أول معركة لى بعد دخولى مجلس النقابة هى مواجهة أزمة القانون ٩٣ لسنة ١٩٩٥ والتى امتدت لمدة عام، كانت هذه المعركة كبيرة ودرسًا مهمًا وبعدها توالت المواقف والجهود خاصة بعد أن توليت موقع سكرتير عام النقابة على مدى ثمان سنوات متصلة وهى أطول مدة يقضيها أحد فى هذا الموقع وخلال هذه الفترة وقع على عاتقى النقل من مقر النقابة القديم إلى مقر مؤقت ثم العودة إلى المبنى الحالي، وما استتبع ذلك من تفاصيل لتطوير العمل الإدارى من اليدوى والورقى إلى الإلكترونى والآلى وإعادة بناء جهاز إدارى يناسب هذا التطوير.. وفى هذا الأمر تفاصيل كثيرة جدًا.

وأيضًا كان للعمل النقابى دور مهم ليس فقط دفاعًا عن الحريات ورفض ترسانة القوانين المكبلة للمهنة، بل دفاعًا أيضًا عن حقوق الصحفيين وعن علاقات عمل متكافئة. وكل من يخلص للعمل النقابى ولا يعتبره مجرد ركوبة للمطامع الشخصية أو المناصب لاتكون الحسبة هى خشية أى خسارة،

الصحف القومية جيش لا يجب أن نتركه حتى ينهار ومبارك كان يدرك هذه الحقيقة

تقليص هامش الحرية وفقدان المصداقية أدى إلى انهيار توزيع الصحف القومية وهى تشهد أزمة غير مسبوقة

انتخابات نقابة الصحفيين الأخيرة بعثت برسالة أتمنى أن تكون قد وصلت فتأميم النقابة على مدى ست سنوات لم يكن حلا

لأنك فى الحقيقة تكسب كل يوم عندما ترى بعض ما حققت وبعض ماكنت تتمناه لهذا المكان ولتحقيق مصالح زملاء وثقوا بك وشعور بالاحترام والتقدير لكثيرين سبقوك وأعطوا دون أن ينتظروا .. حتى ما جرى معى بعد اقتحام النقابة وإحالتى للمحاكمة فى سابقة كانت هى الأولى فى تاريخ النقابة لم أعتبره تضحية بل كان دفاعى عن هذا الكيان النقابى ورفضى العدوان عليه واجبًا أؤديه. وكل من يتصدى للعمل العام ويخلص له يعرف ان هذا اختيار وله تبعات على صاحب هذا الاختيار أن يتحمل تبعاته.

●متى ينتهى ملف الصحفيين المحبوسين من وجهة نظرك.

– عندما يكون هناك إيمان بدور الصحافة باعتبارها مهنة رأى وعندما نؤمن أن حرية التعبير وفى القلب منها حرية الصحافة هى إحدى الحريات العامة، وعندما نجد صدى لمبادئ المحكمة الدستورية ومحكمة النقض عندما قررت أن المصلحة العامة تقتضى عدم تكبيل الصحافة وأن الشطط فى إبداء الآراء ليس مبررًا للتقييد أو العقاب. وحتى يحدث ذلك لا يضيع حق وراءه مطالب أو محارب وهذا دور نقابى بامتياز وكذلك دور كل القوى الحية فى المجتمع.

● لأول مرة يفوز بمنصب نقيب الصحفيين مرشح من خارج المؤسسات الصحفية الكبرى فى الدورة الأخيرة، فكيف قرأت هذا الحدث وهل له دلالات معينة من وجهة نظرك؟

– هذه الانتخابات بعثت برسالة أتمنى أن تكون قد وصلت، فتأميم النقابة على مدى ست سنوات لم يكن حلًا والرغبة فى التغيير كانت جامحة.. وبعد مرور أكثر من عام على هذه الانتخابات النتيجة تقول إن بعض هوامش الحرية مفيدة والاستجابة لاختيارات الناس لا يشكل خطرًا وما نكسبه من ذلك أكثر بكثير من عواقب القوة الباطشة.

● وصفت فى إحدى مقالاتك حضور الملف الصحفى فى «الحوار الوطني» بأنه كان خجولًا... لماذا؟

– لأننى أعتقد أن ملف الحريات الصحفية والإعلام هو الرافعة الحقيقية لأى حوار حقيقى ومنتج، بل هو المدخل لاختبار جديته وعندما وجدت هذا الملف ملحقًا بملفات أخرى وعلى استحياء اعتبرته طريقة خجولة ولا تقدر أهمية هذا الملف بل وتعطيك مؤشرًا إلى مدى جدوى هذا الحوار!.

● يبدو بشكل واضح أن هناك اتجاه لإغلاق الصحف القومية بوقف إرفادها بدماء جديدة فشاهدنا القسم الثقافى فى وكالة الشرق الأوسط يغلق بسبب خروج جميع من فيه إلى سن التقاعد وفى مؤسسات أخرى أصغر تجاوز الصحفيون الموجودون بها الخمسين فكيف ترى هذه المسألة؟

– الصحافة القومية تشهد أزمة غير مسبوقة ومستقبلها يكتنفه الغموض وهى أزمة مركبة على مستوى الصناعة والمستوى الاقتصادى والمهنى وفقدان المصداقية الذى استتبعه انهيار التوزيع، وعندما تقلص هامش الحرية الذى كانت تتنفس به وتنافس بعضها البعض من خلاله تركت وحدها تواجه مصيرها، ولم يصبح أمامها من خيار إلا تنفيذ التعليمات التى تتلقاها، ويزيد من الإشكالية أن الهيئات والمجلس الأعلى التى تتولى شؤون الصحافة والإعلام التى قصدها الدستور أن تكون مستقلة فإذا بها تتحول إلى أدوات تابعة للسلطة التنفيذية وأداة رقابة وفرض قيود!.

أتمنى أن يفتح الحوار الذى تقوده النقابة من خلال المؤتمر العام الذى تنظمه حاليًا ثغرة فى جدار الصمت، حوار مستقبل الصحافة القومية التى مازالت تملك من الأصول والقوى البشرية ما يجعلها تؤدى دورها ورسالتها من أجل المصلحة العامة.. فهذه المؤسسات جيش لايجب أن نتركه حتى ينهار وكان مبارك يدرك هذه الحقيقة وكلما كان يدور الحديث حول بيع المؤسسات الصحفية أو بعضها كما كانت تخطط جماعة جمال مبارك وبطرس غالى كان مبارك يؤكد لجلال عارف نقيب الصحفيين وقتها أنه لا بيع للمؤسسات الصحفية.

●ما سبب تراجع مبيعات الصحف الورقية؟

– كما أشرت أن الأساس سقف الحرية الذى هو وحده الكفيل بإعادة الحياة لهذه الصحف. ومستقبل الصحف القومية لا يرتبط كما يردد البعض بتغول الصحافة الإلكترونية عليها لأن الأزمة ليست فى نوع الوسيلة بل فى محتوى ومضمون هذه الوسيلة.

●هل تراجعت المدرسة المصرية فى الصحافة لصالح مدارس أخرى؟

– قوة الصحافة المصرية كانت تكمن فى قوة تأثيرها وامتداد جذور نشأتها لتاريخ طويل مضى، وكنا نفخر أن عمر الصحافة المصرية أكبر من أعمار بعض الدول.. وقوتها أيضًا فى تنوعها وقدرتها على الحياة بكل الوسائل الممكنة فقد صمدت أمام ألاعيب القصر الملكى وبطش الاحتلال الإنجليزى والمندوب السامى البريطانى وحسابات الأحزاب المتصارعة ودخلت فى معارك كبرى مساندة لما أحدثته ثورة يوليو من تغييرات، وما واجهه الوطن من معارك كبرى رغم ما تم فرضه عليها من قيود فى بعض الأحيان .. والصحافة المصرية فى المجمل تتسم بالحيوية والحياة وقوة مقالات الرأى ومكانة كتابها من صحفيين كبار وأدباء وشعراء ومثقفين وفنانين ومفكرين ونجوم فى المجالات كافة، وتدفق الأخبار ومعرفة طبيعة القارئ الذى تتوجه إليه.

وكانت الصحافة المصرية تملك داخلها مدارس صحفية متنافسة فى الفكر والتوجه السياسى وطبيعة الجمهور الذى تستهدفه كل صحيفة. الآن الحالة الصحفية فى مصر متراجعة لأسباب كثيرة أشرنا إليها لكن لا يشغل فراغ الصحافة المصرية أحد رغم وجود صحافة عربية متميزة لكنها تستمد قوتها من قوة تمويلها والأدوار المحددة لها ومن طبيعة خاصة جعلتها تعيش بالخارج فى الصناعة والمقر لكنها فى الروح هى أسيرة أدوار وأهداف محددة يضعها مالكها كما تتسم بقارئ افتراضى وهذه إشكالية تجعلها محدودة التأثير والجماهيرية.

●لنقابة الصحفيين موقف واضح وبارز من مسألة التطبيع مع الكيان الصهيوني وقد كان لك دور فى ترسيخ هذه المسألة فحدثنا عن جهودك فى هذا الصدد بالتأكيد على حظر التعامل مع الكيان؟

– نقابة الصحفيين كانت فى طليعة النقابات المهنية والعمالية التى بادرت باتخاذ أول قرار بحظر التطبيع النقابى مع الكيان الصهيونى عام ١٩٨٠م وكان كامل زهيرى نقيبًا، وبعد ذلك تبعتها النقابات الأخرى وظلت الجمعيات العمومية للصحفيين منذ هذا التاريخ وحتى آخر جمعية عمومية فى مارس من العام الماضى تؤكد عليه، وخلال هذه المدة التى تزيد عن نصف عمر النقابة ظلت الجمعيات العمومية تتمسك بالقرار وتتشدد فيه وتؤكد على محاسبة المخالفين بكل الوسائل وباتخاذ الإجراءات التأديبية.

لقد فشلت كل محاولات التطبيع تحت زعم المهنية وشعار اعرف عدوك وتحت مزاعم المتغيرات السياسية ومحاولات جماعة كوبنهاجن ونظرية اختراق جماعة أنصار السلام فى إسرائيل ثم أوسلو-١ وأوسلو-٢ وغيرها من محاولات تصدت لها النقابة والجماعة الصحفية كما تصدوا لكل الشخصيات التى تصورت قدرتها على قيادة هذا الاختراق من بين الصحفيين بل ان قوة موقف الجمعية العمومية أجبر مجلس النقابة أن يحيل أسماء صحيفة كبيرة للتأديب ومن بينهم أنيس منصور ولطفى الخولى وصلاح منتصر وعبدالمنعم سعيد.

هذا الملف يؤكد مدى أهمية القضية الفلسطينية عند الشعب المصرى فهى قضية مصير وأمن قومى ووجدان، فكل مصرى حفظ هذه القضية بين ضلوعه لذلك فشل التطبيع على المستوى الشعبى فى مصر.

●فى الأخير نريد تعليقا منكم على طوفان الأقصى إعلاميًا وسياسيًا والسيناريوهات المحتملة لنهاية هذه المعركة.

– عملية طوفان الأقصى كانت كاشفة لأمور كثيرة من بينها الوضع العربى الرسمى وأوهام التطبيع. والإعلام المصرى والعربى مكبل وبالتالى هو فى مجمله يعبر عن المواقف الرسمية ولا يعبر عما يجيش بصدور الشعوب التى لاحول لها ولا قوة والذين يشاهدون ما يتعرض له الشعب الفلسطينى من مجازر وحرب تجويع وابادة ولا حول لهم ولا قوة ..

لكن الشعوب تختزن وسيكون لهذه الحرب تداعياتها على مستقبل المنطقة وعلى مصير هذه الأنظمة. ربما تكون قناة الجزيرة هى الاختراق الوحيد لهذا المشهد الإعلامى العربى فقد دفعت ثمنًا باهظًا من أرواح وتضحيات مراسليها وكشفت الأعداد غير المسبوقة من شهداء الصحفيين والإعلاميين الذى لم نشهد مثيلا له فى أى حروب أخرى فى العالم وهذه واحدة من تجليات أبناء الشعب الفلسطينى الذين يعملون فى هذا المجال والذين صمموا أن يؤدوا أدوارهم ويتعرضون للموت ليرى العالم بعضا من الحقيقة التى يتغافل عنها.

وهذه الحرب كشفت أيضا انحياز وسائل الإعلام الغربية لإسرائيل بل ورأينا القيود على وسائل التواصل الاجتماعي.. أوهام حرية الإعلام الغربى تعرت والمعايير المزدوجة كانت فاضحة وغض الطرف عن جرائم إسرائيل فضيحة.

وفى العموم لا يستطيع لأى أحد منا أن يقرر لشعب يقاوم ليزيح المحتل الغاصب لأرضه ووطنه ما الذى يجب أن يفعله والمقاومة فى أى مكان فى العالم وفى كل التجارب السابقة لا تحكمها قوانين ولا قواعد المكسب والخسارة أو موازين القوى بل تحددها إرادة هذه الشعوب فى التحرر .. والحقيقة التى يغفلها البعض عندنا عن طبيعة هذا الصراع مع الكيان الصهيونى وطبيعة هذا المشروع الاستعماري، هو أنه بلا مبالغة صراع وجود بمعنى أن نكون أو يكونوا، وهذا الأمر بطبيعته معقد ويحتاج نفسا طويلا ويحتاج قبل كل ذلك مشروعا نهضويا عربيا يدرك طبيعة استحالة التعايش مع المشروع الصهيوني.

حوار - د. عبدالكريم الحجراوي